



الحمد لله والصلوة والسلام على رسول الله وبعد:

فإن محن الأمة وتكلب الأعداء عليها مع قلة المعين وضعف الناصر من الناس، وهوان أهل الرأي السديد على كثير من الساسة، وتقريب هؤلاء أصحاب الآراء الفطيرة، بل تقربيهم أصحاب الآراء الخبيثة من الأعداء؛ اغتراراً بما يظهرون به من الصداقة والود مستترین باسم الوطنية أو الحضارة أو غيرهما، وغفلةً عن كتاب الله تعالى الذي أخبر بعداوتهم، وفضح مواطنهم، ثم صدق ذلك التاريخ؛ كل ذلك وغيره لا يخفى على بصير!

والمؤمن الموقن لو تدبر كتاب الله عز وجل لاستبان له السبيل، ومن أعرض عنه فلا غرو أن يعيش الضنك والضيق، وكثيراً ما يحدث ذلك شيئاً فشيئاً؛ فسنة الله الغالية في الأمور التدرج، فلأشياء تحصل بأسباب، والنتائج تكون من جراء مقدمات، وكذلك تقلب أحوال الدول والممالك، ولهذا كثيراً ما لا يستفيق أهلها حتى تحكم القبضة من حولهم، فلا فكاك، وتصل الأمور إلى درجة يصعب بعدها العلاج.

وكثير من المصلحين الفضلاء العاملين يدرك هذه المعاني ويدنون حولها، فيكتنفهم يأس فيغادر الساحة! أو يقعده ويكتفي بالمشاهدة، وبعضهم قد يرتكب حماقة تعوقه ثم لا تنفع الأمة، بل قد تضرها.

والواجب التوازن، فمع معرفتنا بسنن الله في الممالك والدول، علينا أن نستحضر سنته القاضية بحفظ الدين، وظهور أهله، ونصر أوليائه، وكبت أعدائه، كما قال سبحانه: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُولُونَ إِنَّمَا يَأْتِيُ الْأَشْهَادُ} [غافر: 51]، وقال عز شأنه: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُنَاحَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [الصفات: ١٧١ - ١٧٣].

فإذا استحضرنا مع هذه السنن الواجب علينا، وعلمنا أنه ما من داء إلا وقد أنزل الله له دواء، عرفه من عرفه وجهله من جهله، كما في صحيح مسلم قال صلى الله عليه وسلم: **لكل داء دواء**(1)، وفي البخاري باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، وفيه حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**ما أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شَفَاءً**»(2)، وهكذا أدوات العمالك والأمم!.. إذا استحضرنا ذلك أيقنا أنه إذا أخذ المصلحون بالأسباب الشرعية، أظهرهم الله وكتب نجاة من شاء من الأمة على أيديهم، ومتى تخاذلوا وقعدوا عن الإصلاح، هلكوا جميعاً كما في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**مِثْلُ الْقَائِمِ عَلَى حَدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمْثُلٌ**» قوم استهموا على سفينـة فأصاب بعضهم أعلىـها وبعضاـهم أسفلـها، فكانـ الذينـ في أـسفلـهاـ إذاـ استـقـواـ منـ المـاءـ مـرواـ عـلـىـ مـنـ فـوقـهـمـ، فـقالـواـ: لـوـ أـنـاـ خـرقـناـ فـيـ

نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوه وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»(3).

وهذه السنن يجب أن تحكم رؤيتنا للأحداث من حولنا، وتحكم مع ذلك تصرفاتنا فيها، بل يتوقع العاقل النتائج بعد ذلك بناء عليها، ولا أعني بتوقع النتائج ظهور الدين ونصرة أهله في نهاية المطاف، فهذه ضربة لازب لا محيد عنها: {وَكَانَ حَقًا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} [الروم: 47]، {إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرُكُمْ} [محمد: 7]، {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ} [الحج: 40]؛ لكن أعني ما تسفر عنه الأحداث من تغيرات سياسية، وما تؤول إليه أحوال أسرٍ وأمم، في الجملة.

ومن تمام فقه الداعية للسنن الماضية أن يعلم أن نصرة الله لدینه لا تقتضي أن تسير أمور البلاد على هوی الداعية أو رغبته، فينصلح الحال، وتستقيم أمور الدولة والناس على الشريعة! بل العامل لأجل الدين المخلص لله رب العالمين في عمله، لا يتعلق بالسميات كثيراً، ولا يأسف على ذهاب حكومة أو سقوط نظام أو زوال دولة لم تأخذ بسنت البقاء ولم تحفظ شرع الله لحفظها الله، فالخلافت المصلحين، وحاربت الناصحين الحادبين على أبنائهما! وقد اقرأ قال شعيب عليه السلام فيبني وطنه، بل قبيلته وقومه، وقد أخذتهم الرجفة فأصابحوا في دارهم جاثمين كأن لم يغدوا فيها: {فَنَوَىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمَ لَقَدْ أَبْغَثْتُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَخْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ} [الأعراف: 93]! وقد قال الله تعالى لклиمه موسى لما ضرب التي على قومهبني إسرائيل: {فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [المائدة: 26]، وقال محمد صلى الله عليه وسلم: {فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [المائدة: 68]، {فَلَا تَذَهَّبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} [فاطر: 8]، بل أمرنا الله تعالى فقال: {فُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ} [النمل: 69]، ثم قال: {وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ} [النمل: 70]!

فالملهم ما يعمل المصلح لأجله، وهو هذا الدين؛ نجاة بالنفس واستنقاذ لامة المسلمين. أما نصر الله تعالى لدینه فمتحقق عاجلاً أو آجالاً، وأما استنقاذ المسلمين فموقوف على استجابة من استجاب منهم.

ثم على المصلح أن يستحضر وهو ينظر إلى أقدار الله ما يقوله في الصباح والمساء: رضيت بالله ربأ، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلمنبياً، وإن كان المقدر مؤلماً، والخطب عظيماً! كما نراه جاريًّا في الأمة هذه الآونة.

فرضاه بالله ربأ يقتضي رضاه بتدبیره لعيده، عالماً بأن ما يجريه فيهم وإن كان مؤلماً فهو بحكمته تعالى البالغة ومن تمام عدله، بل يبصر الموفق رحماته تعالى ومنحة في طيات المحن، ويتدبر كيف يمكن أن تكون المصيبة لولا رحمة الله بعباده، فيحمله ذلك على اللهج بالثناء رضاً بالقدر، وعلماً بأن المصيبة المقدورة قد اكتنفتها رحمات، مع استحقاق العباد شديد العذاب! {وَلَوْ يُوَاجِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَائِبَةٍ} [النحل: 61]، وفي الآية الأخرى: {وَلَوْ يُوَاجِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهِيرَهَا مِنْ دَائِبَةٍ} [فاطر: 45]، {وَمَا أَصَابُكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} [الشورى: 30]، وانظر إلى رحمة الله حيث يقول: {وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ}!

ومن رضاه بمحمد صلى الله عليه وسلمنبياً ورسولاً أن يحرص على سنته واقتفاء أثره ومتابعته أثناء القدر النازل، خلافاً لمن يتسللون جهاراً أو لواذاً من السنة عند نزول أدنى محبة! ففي مظاهر من التشبه بالأولى قالوا: {إِنَّ بُيوْتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُبَدِّلُونَ إِلَّا فِرَارًا} [الأحزاب: 13].

ومن رضاه بالإسلام ديناً أن يتعامل مع المصائب المقدور وفق شرع الله وأمره، فلا يتخذ من المصيبة ذريعة لمخالفة الشريعة! فال المصيبة ما وقعت إلا بذنب، والذنب لا يُرفع أثره بالذنب! وفي دين الله الذي رضينا به متسع وغناء، يعرف ذلك الفقيه النبي، لا الغالي في دين الله، ولا الجافي عنه، والغلو والجفاء مخالفة لأمر الله وشرعه الذي جاء بالمصالح الدنيوية والأخروية، وفي خلافه ولو بالتأويل مفاسد على الأقل دنيوية؛ فالذي يسلك طريقاً غير صحيح لن يصل وإن كان قد يُعذر

باستباحة الأمر عليه، وكذلك من خالف شرع الله بالتأويل، بل لو تأملنا ما أصاب الأمة من الحوادث الأخيرة وجدنا كثيراً منه بتأويل غلاة هبوا لذود الظلم عنها، والدفاع عن حقوقها، فكانوا سبباً في تدميرها بجهلهم! وهم في مخالفتهم علماء الشريعة بين متأنل مجتهد معذور - إن كان من أهل الاجتهاد - ومقصراً أو صاحب هوى موزور له من إثم ما نزل بالأمة نصيب لتسببه فيه، وكذلك كثير من الظلم الواقع ابتداءً كان بسبب تأويل الجفاة وفسادهم في البلاد أولاً؛ استبداداً وظلماً، وأكلاً للحقوق، وتحكيمًا لغير الشريعة، وتقريراً لمن بعدهم الله، وتبعيداً لمن أمر الله بتقريبهم.

فالتصرفات غير المسؤولة غلوأ وجفاء سبب في إيجاد فرصة للأعداء يتكلبون من خلالها على الأمة ويمررون المؤامرات ضدها.

وأهل السنة والجماعة بين الغلاة والجفاة، يعرفون الحق، ويرحمون الخلق، وينفون عن دين الله تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، ولا تقذف حماقات الغلاة أو الجفاة في نفوسهم اليأس من إصلاح الأحوال، ونصرة الدين، موقنين بقول إمامهم صلى الله عليه وسلم: «لا يزال ناس من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون»⁽⁴⁾، و«لا يزال طائفه من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون»⁽⁵⁾، وفي حديث عمير بن هانئ رحمة الله أنه سمع معاوية يقول: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك». قال عمير: فقال مالك بن يخامر: قال معاذ: وهم بالشأم، فقال معاوية: هذا مالك يزعم أنه سمع معاذاً يقول: وهم بالشأم⁽⁶⁾.

وهذه الطائفة هي الباقيه المنصورة؛ إن قتل منهم قادة خلفهم آخرون، وإن ذهب منهم إلى الله قوم أبدل الناس غيرهم، يعرفون أن المعركة معركة عقيدة، لا انتصار للأمة فيها بالتخلي عنها، ولا بموالاة أعدائها، أو ممالأة المخالفين لشرعها، بل بالبراءة منهم، ومن مناهجهم، وهو مع ذلك يتبعون الرسول صلى الله عليه وسلم في حسن سياساته للأمور، فيعملون بالمقدور، ويخففون على الأمة من الفساد ما استطاعوا، ولا يحملونها فوق طاقتها، أو يكتفونها شططاً، يواجهون حيث كانت المواجهة خيراً للأمة أو لا بد منها، ويكونون حيث كانت المصلحة في الكف أو المصالحة والصبر.. يرحمون إخوانهم ويعطفون عليهم، ويغلوظون لعدوهم المحارب ما أمكنهم، دون استدعاء للمسلمين، أو تهاون مع المحاربين: {أَذْلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} [المائدة: 54].. يبذلون جهدهم على كافة الأصعدة لنصرة الدين؛ علمًاً وتعلماً، قوله تعالى: {وَعَلَّمَهُمْ مِنْ أَنْعَصِ الْأَيَّامِ}، دعوة وجهاداً، صابرين مصابرين مرابطين، متقيين الله فيما يأتون أو يذرون، وأولئك هم المفلحون، الذين تظاهرت النصوص على ظهورهم، فمن رام النجاة فليلحق برकتهم، وليس لك منهاجهم، في العلم والعمل، ولنيات من ذلك بما يستطيعه، فإن تزاحمت عليه الأمور فليأت ما هو أولى، وذلك يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال والبلدان، فمن الناس من يكون بذلك واسعه في العلم هو الأولى في حقه مع ضربه في بقية أبواب الخير بما تيسر له، ومنهم من يكون بذلك واسعه في الدعوة أو الجهاد أو العمل هو الأولى في حقه، مع لزوم مشاركته في بقية الأبواب بما يتيسر له.

والهم ألا يستعجل السالك، وأن يعلم أن الطريق طويق، والعقبة كؤود، تحتاج إلى توافر الجهود، وأن نصر الله عز وجل لا يأتي إلا بعد ابتلاء وتمحيص للصف يفتح فيه المنافقون والمتهوكون، ويظهر للعيان ضلال الجفاة، ويستبين الناس فيه ضرر الغلاة وما يجرونه من الفساد، فإذا ظهر ذلك وسلك الناس الجادة، ونشأت أجيال قد عرفت طريقها؛ جاء نصر الله عز وجل، وفي أثناء ذلك سبياس أقوام وينقطع آخر، ويظنون بالله الظنون! ولا غرو، فقد قال الله تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا اسْتَبَّاَنَ الرُّسُلُ وَظَلُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُواْ جَاءُهُمْ نَصْرُنَا فَتَجِيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بِأُسْنَانَ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} [يوسف: 110]، وقال في خير أمة: {إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَيَلْغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَنْظُنُواْ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۖ ۗ هُنَّا لَكُمْ

ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا} [الأحزاب: ١١ - ١٢]، {أَمْ حَسِبُتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثْلُ الَّذِينَ خَلَا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [البقرة: ٢١٤]، {الْجِمْ ١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفَتَّنُونَ ١ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} [العنكبوت: ١ - ٣].

وأختم الكلام بإشارة نبوية ثبتت في الصحيح قالها صلى الله عليه وسلم في أوضاع أحلك من هذه الأوضاع، كان المسلمين فيها قلة، يسامون العذاب، ولم تكن لهم بالجهاد طاقة، بل كان في حقهم محظياً لأمرهم بالكف! في البخاري عن خباب بن الأزر رضي الله عنه قال: «شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظَلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَحْسِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُ اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاهُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوَضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقَّ بِالثَّتَنِينِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْسِطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظِيمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ لَيُتَمَّنَ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهُ، أَوِ الدِّينُ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ» (٧).

إن المكر كبار، والخطب عصيبة، لكن الأمر كما قال الله تعالى لسلفنا الأولين: {وَإِنْ تَصْبِرُوْا وَتَتَقَوْا لَا يَضْرُكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [آل عمران: ١٢٠]، فعلينا بالصبر الإيجابي المقضي للعمل الدؤوب وترك الاستعجال.. عافي الله المصلحين وسائر المؤمنين من التنازل أو الاستعجال، ومن الإياس والقنوط، وألزمنا وإياهم جادة الصواب بتوفيقه ورحمته.

(١) صحيح مسلم (٢٢٠٤).

(٢) صحيح البخاري (٥٦٧٨).

(٣) صحيح البخاري (٢٤٩٣).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه (٣٦٤٠).

(٥) صحيح البخاري (٧٣١١).

(٦) صحيح البخاري (٣٦٤١) و(٧٤٦٠).

(٧) صحيح البخاري (٣٦١٢).